إن
في ذلك لذكرى

لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد

رسالة

الأستاذ أبي الحسن الندوي

بمباي

١٣٧٤ هـ — ١٩٥٥ ع

تمهيـــد

فى يومى ١٥ و ١٦ من شهر جمادى الأول ١٣٧٤ الموافق ٨ و ٩ من شهر يناير ١٩٥٥ عقد رجال العلم من مسلمى الهنـــد مؤتمرا ثقافيا بمدينة بومباى لتقرير مصير أبنائهم من حيث الثقافـــة الاسلامية. وحضره عدد جم من الوفود الذين يمثلون مختلف المعاهد الاسلامية المنبثـــة فى طول الهند وعرضها وخاصـة منهـا ما يهتم بالجانب العربى، وكان من جملة الوفود وفد يمثل ندوة العلماء يرأسه فضيلة الأستاذ السيد أبو الحسن على الندوى حامل مشعل الهـــداية الاسلامية بالهند.

وقد اغتنم أحد الأخوان من محبى الأستاذ وعارفى فضله فرصة إقامته القصيرة فأقام حفلة شاى تكريما لفضيلته. جمعت عددا غير وافر من الأخوان لأن الداعى لم يتمكن من تعميم دعوته بالنـظر لضيق الوقت.

وعندما عاد فضيلة الأستاذ لمقر عمله بمدينة لكهنو بعث برسالة موجهـــة لاثنين من الأخوان ضمنها نصيحة غالية ونداء منبعثا من

أعماق قلبه الفائض إيمانا وحكمة، وحيث أن تلك الرسالة معنى بها كل ناطق بالضاد ومؤمن برسالة محمـــد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم ونظرا لما انطوت عليه من درر غالية وتوجيهات روحية قررنا نشرها ليعم نفعها، والله من وراء القصد.

ولفضيلة الأستاذ شكرنا وتحياتنا.

بومباى، ١٣٧٤/٥/٢٦ حسين بن محمد

بسم الله الرحمن الرحيم

حضرة الأخ الكريم الشيخ حسين بن محمد والصديق العزيز الأستاذ سلطان حفظهما الله تعالى ومتع بهما.

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته. أرجو أن يكون الاخوان الكريمان والأخوان جميعا فى خير ما يتمناه المحبون من صحة وهناء وسعادة وعافية.

وبعد فقد ضاق الوقت عن أداء واجب الشكر والاعتراف بالجميل والتعبير عن بعض ما كان يجيش فى الصدر من عواطف التقدير والامتنان وإكبار الكرم والشهامة العربية والجامعة الاسلامية التى تحملكم مرة بعد مرة على تكريم شخص ينتمى إلى العلم والدين ويحب العرب ويعتبر نفسه عضواً من أعضاء هذه الأسرة العربية الكريمة ويعتز بهذه النسبة العزيزة. وقد جاء تكريمكم له توثيقا لهذه الرابطة، وصلة لهذه الرحم، وتصديقا لهذه النسبة وقد خرجت من المجلس بالأمس وفى نفس يعقوب حاجة ما قضاها، وكأنى أخللت ببعض واجبات المروءة وأسأت إلى نفسى

إذ لم أشكركم فبدأت اكتب هـذه السطور وأنا فى القطار، لعلى أنفس عن نفسى وأتلافى ما فرط منى.

أشكركم جميعا على هذه الحفاوة الصادقة والشعور النبيل الذى أبديتموه لهذا العاجز، وأشكر جميع الأخوان الذين تكرموا بالحضور واشتركوا فى هـذا التكريم، وأخص بالشكر سعادة الشيخ يوسف الفوزان، وكان دائما صاحب الفضل فى تكريم هذا المحب، حفظه الله وأدام توفيقه وعزز به الاسلام.

لقد أثارت حفلة أمس شعورا لو وجدت فى الوقت سعـة لتحـدثت به إليكم، وانتهز هذه الفرصة واستنيب قلمى عن لسـانى وأقدمـه إليكم على صفحات هذه الرسالة ورجائى أن تطلعوا عليها جميع الأخوان الذين ضمهم مجلس أمس.

إننى أومن — أيهـا الاخوة الكرام — أن محمداً صلى الله عليه وسلم منذ بعث هو نبى كل جيل وإمام كل عصر، وأن دينه الذى جاء به سفينـة نوح فى كل طوفان، وأن لا عاصم من أمر الله إلا من رحم والتجأ إلى هـذه السفينة، ولا أقول ذلك عن تقليد وعصبية، إنما اقول ذلك — علم الله — بعـد دراسة واسعة

وبينة من الأمر واقتناع علمى، وإنما تتشرف الأمم والجماعات والأفراد والأشخاص ويكتب لها البقاء والخلود، والعزة والنصر باتباع هذا النبي الكريم والاعتزاز بدينه والتمسك بأهدابه وحمل رسالته وأمانته، ومن استغنى عنه أو رأى الشرف فى غير أتباعه، أو ثار على إمامته العامة الخالدة التى فرضها الله على اجيال الانسانية كلها وعلى ادوار التاريخ كلها، وقطع صلته عن دوحته العظيمة، وشغل بنفسه وشهواته ومصالحه الشخصية عن حمل رسالته وأداء أمانته محى من الوجود، وأخمل ذكره وأصبح مطموسا منكوسا، وكان كورقة انفصلت عن شجرة خضراء فتذوى سريعا وتصبح هشيما تذروه الرياح، عربيا كان أو تركيا، هاشميا كان أو تميميا، هذا قضاء الله وحكمه ولا راد لقضائه، والتاريخ يصدق ذلك، وتجارب الأمم توثقه، وقد صدق الشاعر الفارسى حيث قال «محمد صلى الله عليه وسلم هو شرف العالم وكرامة الأفراد والأمم، فمن أبى أن يستمسك بغرزه ويمشى فى موكبه، أرغم أنفه وكتب له الذل والصغار». وقد صدق العلامة الدكتور محمد اقبال وهو نابغة العلوم العصرية والثقافة الغربية فى العالم الاسلامى كله حيث قال «لا عجب إذا انقادت لى النجوم وخضعت لى الأفلاك والكواكب، فقد ربطت نفسى بركاب سيد

عظيم لا يأفل نجمه ولا يعثر جده، ذلك هو البصير بالسبل خاتم الرسل، إمام الكل محمد صلى الله عليه وسلم الذى وطأت قـدمه الحصباء فاصبحت إثمدا يكتحل به السعداء».

إن هـذا الانفصال — أيها الاخوة الكرام — عن الدوحة النبوية المباركة، وإن هذا الانقطاع عن الموكب المحمدى المقبل، وعن ركبه الميمون، خسارة لا تعوض بشىء، إنها لا تعوض بأعظم ثروة، ولا باوسع دولة، ولا بأروع مظهر، إنها لا تعوض بلباقة أو كياسة أو سياسة، أو حذاقة للغات أو براعة فى تقليد الأزياء، لأنه تخلف عن ركب الحياة وانقطاع عن معين المعنويات، ولا عوض عن الحياة والمعنويات والروح فى المظاهر والأزياء، واللغات والثقافات، والتقليد والمحاكاة، وقد كان الصحابة رضى الله تعالى عنهم يؤمنون بأن الاسلام هو مصدر عزهم، ومطلع فجرهم، وفاتحة عهدهم الجديد، وسر قولهم وانتصارهم، ويصرحون بذلك أمام الناس. يدل على ذلك دلالة واضحة ما رواه ابن كثير فى تاريخه، قال لما قدم عمر الشام عرضت له مخاضة فنزل عن بعيره ونزع موقيه فأمسكهما بيده وخاض الماء ومعه بعيره فقال له أبو عبيدة: قد صنعت اليوم

صنيعا عظيما عند أهل الأرض، صنعت كذا وكذا! قال فصك فى صدره وقال: اوّ لو غيرك يقولها يا أبا عبيدة! إنكم كنتم أذل الناس، وأحقر الناس، وأقل الناس، فأعزكم الله بالاسلام فمهما تطلبوا العز بغيره يذلكم الله»[1]. وهذا هو الواقع التاريخى. فكلما حاول العرب إن ينالوا الشرف بغير هذا الدين أخفقوا وذلوا، وقد كان اسمهم يرجف القلوب ويملاها مهابة وروعة، وقد خرجوا من جزيرتهم فى ثياب صفيقة مرقعة ونعال وضيعة مخصوفة، وذلك لسر خالد، وهو أن الانسان مفطور على إجلال الفائق والغرام بالمفقود، وقد كان العرب يملكون الايمان واليقين والأخلاق التى كانت الأمم أفلست فيها إفلاسا شائنا، ثم إن الذى فطر المادة والروح قد فرض على المادة أن تخضع للروح، وفى التاريخ الانسانى، ليس التاريخ الاسلامى فقط، شهادات متصلة متسلسلة لانتصار الروح على المادة والمعنويات على الماديات، وقد كان انتصار العرب على الروم والفرس الذين كانوا يفوقونهم ألف مرة فى العدة والعتاد، والمادة والآلات، والمدنية والحضارة، أروع شهادة لغلبة الروح على المادة.

كيف يحمل بالعرب والمسلمين، أن يقلدوا هذه الحضارة

١ — البداية والنهاية، ج ٧، ص ٦٠.

الغربيه، وقد علم الذين درسوا تاريخ هذه الحضارة أنها تأسست على الظلم والعدوان والأخذ بالقشور، والاكتفاء بالحس وإنكار ما وراء ذلك وعبادة المادة والشهوات من أول يوم، وهى خليفة الحضارة اليونانية الضالة أو المدنية الرومية الآثمة، ثم إن الذين يتزعمونها اليوم هم أكبر جناة التاريخ ومجرمى الانسانية، وأقوى عامل من عوامل الفساد والشقاء والظلم والطغيان فى العالم. هم الذين ملاوا الأرض جوراً وظلما وفساداً وشهوة، وأقاموا فى العالم مجزرتين من أهول مجازر التاريخ — أعنى الحرب العالمية الأولى والثانية — ويستعدون لمجزرة ثالثة لعلها تكون المجزرة الأخيرة التى فيها فناء العالم وحتف الانسانية كلها، فانهم سيستعملون فيها القنابل الذرية لا محالة، وهم الذين استعبدوا الامم وسخروها لشهواتهم ومآربهم وأهانوا الشرق الاسلامى وحرموه الحرية والحياة، ولا يزالون يعبثون به، ويسخرون رجاله وقادته لأغراضهم ويضربون بعضهم ببعض، فكان اللائق المنتظر من المسلمين والغرب أن يشتد بغضهم وعداؤهم لهذه الحضارة وأصحابها، ولا يرى منهم ميل أو تشيع أو تقليد لهذه الأمم المجرمة الظالمة وحضارتهم الأثيمة وقد قال الله تعالى « ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار وما لكم من دون الله من أولياء ثم لا تنصرون ».

ولا أقصد بقولى « الحضارة الغربية » علوم الطبيعة البريئة، والعلوم والآداب التى ليس عليها طابع أمة، إنما أقصد بذلك فلسفة الحياة التى يدين بها الغرب — سواء المعسكر الرأسمالى والمعسكر الاشتراكى — وهى الايمان بالمادة والقوة فقط، وإنكار القيم العالية والحقائق الغيبية. هذه الفلسفة المادية التى ولدت هذه الحضارة المادية وظهرت هذه الحضارة المادية فى النهامة بالمال والحرص على تملك أعظم مقدار منه للتمتع باللذات، وانتهاب المسرات واحراز الجاه والسمعة والمنزلة عند الناس، والتغافل عن كل ما عدا ذلك، ومما جاءت به الأديان السماوية من العقائد والأخلاق. هذه الفلسفة التى تعارض الفكرة الايمانية على خط مستقيم، التى تقول « وما هذه الحياة الدنيا إلا لهو ولعب، وان الدار الآخرة لهى الحيوان، لو كانوا يعلمون ». وتعارض قول النبى صلى الله عليه وسلم « اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة ». هذه الفلسفة التى لا تؤمن بقوله تعالى « إن أكرمكم عند الله أتقاكم » ولا بقوله « قد أفلح من تزكى وذكر اسم ربه فصلى » بل تهتف فى غير حياء وتحرز « إن أكرم الناس أغنى الناس » و « قد أفلح من اغتنى واقتنى، وأيسر وأثرى، وأكل الشهى اللذيذ، ولبس الفاخر الجديد، وملك عدداً من

السيارات والقصور ».

إن تقليد هذه الحضارة لم يكن لائقا بالمسلمين والعرب، يوم كانت هذه الحضارة فى أوجها وزهوها، وكانت تنتج وتثمر، وكانت شابة فتية، أما وقد شابت ووهنت وبدأت تتقدم بخطى سريعة إلى الافلاس والاخفاق، بل إلى الانهيار والانتحار، فتقليدها أقبح وأخزى. ويعلم الذين يتصلون بمراكزها وتياراتها الجديدة، أنها قد أصبحت فاكهة قد أينعت وحان قطافها، وأنها إذا لم تقتطفها يد قوية فانها ستسقط بنفسها على الأرض وتتناثر، فالذين يربطون حظوظهم ونفوسهم بهذه السفينة المتكسرة التى قد أشرفت على الغرق يسيئون إلى أنفسهم وإلى أمتهم قبل أن يسيئوا إلى عقيدتهم وملتهم.

إن المسلمين فى الهند وغيرها من الأقطار الاسلامية غير العربية، كانوا يتوقعون من العرب أن يكونوا أشد اعتزازاً بهذا الدين وأشد عداء للامم الاوربية التى انتزعت منهم السيادة العالمية والقيادة الفكرية والسياسية وأحرص على الدعوة الاسلامية، وأعظم تألما لما هو واقع فى العالم من المآسى والمهازل، ولما وصلت إليه الانسانية من الهبوط والتدلى، كانوا يتوقعون أن يكون العرب أرسخ عقيدة

وأشد حماسة فى كل ذلك من المسلمين الذين آمنو بدعوتهم، وكانوا أتباعهم فى هذا الدين، لأن العرب أسرة النبى صلى الله عليه وسلم وقبيلته، ولأن القرآن — الذى ارتعشت له الجبال وزلزلت به الأرض — إنما نزل بلغتهم ولا يزالون يفهمونه ويحسنون قراءته، ولا يحزن الانسان مثل ما يحزنه إذا رأى تقليداً من إمام وضعفا من قوى، واستجداءاً من غنى.

إن فى الهند وباكستان — أيها السادة — رجالا لم تزدهم دراسة العلوم العصرية والاطلاع على النظم الغربية، والاتصال بمراكز الحضارة الاوربية، والاجتماع برجالات الغرب وقادة الفكر والسياسة فيه، لم يزدهم كل ذلك إلا اعتزازاً بالاسلام والتضلع من حب محمد بن عبد الله عليه الصلوة والسلام، والايمان بأن الاسلام هو الرسالة الأخيرة، وإن تعاليمه موافقة لكل مكان وأوان، بل هى سابقة للزمان، وان الانسانية فى كل طور من أطوار حياتها تجد فيها الغوث والنجدة، ولم يزدهم كل ذلك الا يأسا من الحضارة الغربية التى لا تستطيع إن تحمل نفسها وتنجد رجالها، ولم يزدهم إلا سخطا على قادة الغرب الذين قد ظهر إخفاقهم فى حل المعضلات الانسانية،

وتجلى إفلاسهم فى المؤهلات والوسائل التى يحلون بها هذه المعضلات وأعظمها الاخلاص والايمان، ويقودون العالم إلى الغاية الرشيدة ولكنهم لكبرهم لا يعترفون بهذا الافلاس ولا يبحثون عن مصدر جديد يحلون به هذه الأزمة التى حلت بالانسانية كلها بسببهم، وينجدون به الانسانية التى تملكوا زمامها واحتكروا زعامتها. ان كل ذلك لم يزدهم إلا ثقة بهذا الدين وتصلبا فى عقيدته وشريعته ومحافظة على آدابه وحضارته، ولو شئت لعددت عشرات من هؤلاء الأساتذة المؤمنين والعلماء الراسخين ممن يجمعون بين الثقافة العصرية الواسعة والعقيدة الاسلامية الراسخة، وكان بعضهم من أفذاذ هذا العصر فى بعض العلوم الغربية والفلسفة والسياسة والاقتصاد والأدب.

ولكن ذلك لا يزيد فى شرف النبى الأمى صلى الله عليه وسلم بل يشرف هؤلاء الذين ينتمون إلى دينه ويعدون من أتباعه، ولم يزل فى كل عصر من عصور الاسلام نوابغ وعباقرة من أذكياء العالم يفتخرون بالدخول فى أتباع النبى صلى الله عليه وسلم ويعدون ذلك أكبر مفخرة لهم.

ان الاعتزاز بالاسلام — أيها السادة — والظهور به تقدم ونبوغ وذكاء، ورمز للاستقلال الفكرى، بالعكس من ذلك الانسحاب من الاسلام وتقليد الحضارة الغربية والالحاح على تطبيق النظم اللادينية فى بلاد الاسلام وفى بيوت الاسلام، رجعية وجمود وضعف عقلية وتفكير ورمز لمركب النقص، وقد انقضى من غير رجعة ذلك العصر الذى كان يعد فيه الظهور بالمظهر الغربى، وتقليد الأساليب الغربية فى الحياة وإطراء النظم الحديثة، تقدما ورقيا، وظرافة وكياسة. أما الآن فقد ضجر الغربيون أنفسهم من حضارتهم وانتقدوها انتقاداً لاذعا وتهكموا بها، وقالوا إنها حضارة مرتجلة لا تقوم على تصميم وتفكير سابق، وإنما قفزت من أوضاع كانت تسود فى القرون المتوسطة المظلمة.

وبعد ذلك كله لا أرضى لكم أن تكونوا رجالا لا يهمهم إلا أن يكونوا أداة حقيرة فى هذا الجهاز المادى، ولا تهمهم إلا المصالح الشخصية والرفاهة الفردية. وأن يكونوا ذلك الساقط الهمة الذى ذمه الشاعر العربى الكريم حاتم الطائى بقوله:

لحا الله صعلوكا مناه وهمه ٥ من العيش أن يلقى لبوساً ومطعما

ويا ليت فتيان العرب بلغوا فى علو همتهم وطموحهم مبلغ الشاعر الجاهلى امرىء القيس حيث قال :

ولو أننى أسعى لأدنى معيشة ✲ كفانى ولم أطلب قليل من المال
ولكننى أسعى لمجد مؤثل ✲ وقد يدرك المجد المؤثل أمثالى

إن المجد المؤثل — أيها الأخوان — وهو الذى لم يحلم به الشاعر الطموح هو الذى نشده عمر بن عبد العزيز فأدركه وسعى له طارق بن زياد ومحمد بن القاسم الثقفى فوصلا إليه، وهو الذى يليق أن يكون مثلكم الكامل وغايتكم المنشودة. إنكم أحق الناس بأن تثوروا على جاهلية القرن العشرين كما ثار آبائكم على جاهلية القرن السادس المسيحى، وأن تتمردوا على المادية العصرية كما تمرد أسلافكم على مادية عصرهم، وتضحوا برفاهتكم وترفكم وأمانيكم المعسولة فى سبيل الاسلام وفى سبيل المصلحة العامة والسعادة البشرية «وجاهدوا فى الله حق جهاده، هو اجتباكم وما جعل عليكم فى الدين من حرج، ملة أبيكم ابراهيم، هو سماكم المسلمين من قبل، وفى هذا، ليكون الرسول شهيداً عليكم وتكونوا شهداء على الناس، فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واعتصموا بالله، هو مولاكم فنعم المولى ونعم النصير».

هذه كلمة لم يملها — علم الله — إلا الاخلاص والحب العميق ومرارة الكلمة المخلصة محتملة وعتاب المحب مغفور ومحبب، وأعود فأشكر أخلاقكم العالية وروحكم الطيبة والشيء من معدنه لا يستغرب

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

محبكم

أبو الحسن على الحسنى الندوى

طبعها خليل شرف الدين فى مطبعة « ق » ٢٩ شارع محمد على - بمباى ٣ بالهند

ونشرها حسين بن محمد، ٩٦ شارع محمد على، بمباى ٣